

بسم الله الرحمن الرحيم



سلسلة المحاضرات

١٠ فبراير ٢٠٢٤ م الموافق ٢٩ رجب ١٤٤٥ هـ

المحاضر:

فضيلة الدكتور مصطفى إبراهيم تيسيرتش

المفتي العام في البوسنة سابقاً

موضوع المحاضرة:

من المسؤول اليوم عن الإنسانية

في ظلام الازمة الإنسانية الكبرى؟

المسؤول عن الإنسانية (Humanism) هو الانسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، قال تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (1)؛ وجعله في الأرض خليفة، قال تعالى: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (2)؛ وسخر له ما في السموات وما في الأرض، قال تعالى: وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3)، وقال له: أنت، أيها الانسان، سوف تُسألُ عما تفعل، قال تعالى: لَا يُسْأَلُ (أي الله) عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ (أي البشر كلهم) يُسْأَلُونَ (4).

• الانسان في أحسن تقويم

فالحقيقة بأن الإنسان خُلِقَ في "أحسن تقويم" تشير إلى الفرق الشاسع بين النظرية العلمية (Scientific) المادية التي تؤكد على ما هو مشترك بين الحيوانات والبشر وبين الروحانية الدينية التي تؤكد على ما يجعل الفرق بين البشر والحيوانات. داروين لم يجعل الإنسان حيواناً، لكنه جعله واعياً بأصوله الحيوانية. فمن هذا "الوعي" واصل الآخرون استخلاص "الاستنتاجات المناسبة" أخلاقياً وسياسياً على أن المجتمع الإنساني قطع في الشكل الحضاري، وأن الحضارة إنما هي يقظة إنسانية تتحقق برفض المحظورات الدينية، وإنما هي جهود انسانية كذلك تتحقق بالسيطرة على الطبيعة وبممارسة العيش مع الحواس الجسدية من دون انتباه الي الحواس الروحية او الانتماء الي الدوائر الدينية الروحانية (5).

• الانسان خليفة في الأرض

أما عن كونه الخليفة في الأرض فعلى الإنسان أن يعلم، كما قال ابو القاسم الراغب الاصفهاني، انه " لا يصلح لخلافة الله تعالى ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس قد أزيل رجسُه ونجسُه، فللنفس نجاسة كما أن للبدن نجاسة، لكن نجاسة البدن تُدرِكُ بالبصر ونجاسة النفس لا تُدرِكُ إلا بالبصيرة. وإنما لم يصلح لخلافة الله تعالى إلا من كان طاهر النفس، لأن الخلافة هي الاقتداء به على قدر

1 سورة التين ٤ .

2 سورة البقرة ٣٠ .

3 سورة الجاثية ١٣ .

4 سورة الأنبياء ٢٣ .

5 See: Marcel A. Boisard, *Humanism in Islam*, American Trust Publications, Indianapolis, 1988, p. xi.

طاقة البشر في تحري للأفعال الإلهية، ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر القول والفعل، فكل إناء بالذي فيه ينضح“ (6).

وأما عن الحقيقة بان الله سخر للبشر “ما في السنوات والأرض” فقد أخطأ البشر في فهم هذا المعنى حيث يريدون، كما لاحظ روبرت جونجك (Robert Jungk)، أن يتخذوا مكان الله، ويريدون تكرار صنع الله، ويريدون إعادة الخلق وتنظيم الكون، الذي من المفترض أنهم “يخلقونه” وفقاً لقانون عقلم المتفشى.. وهذا كان ولا يزال طموح التقدم في القرن العشرين. ونتيجة هذا الطموح هي تجريد الإنسان من إنسانيته، الذي نسي الكرامة الإنسانية في جشعه للسلطة الإلهية (7).

• أزمة إنسانية كبرى

إذن، هذا ما وصلنا إليه اليوم في بداية العقد الثالث من القرن الواحد والعشرين، وصلنا إلى أزمة إنسانية كبرى (A Great Crisis of Humanism) مفادها فقد كرامة الإنسان بسبب نقض البشر ميثاقهم الذي أخذ الله عليهم فأبعدهم عن الحق وطردهم عن الهدى وجعل قلوبهم قاسية فلا يتحملون بالمسؤولية الإنسانية امام الله وامام التاريخ ولا يشعرون بالضمير الأخلاقي الإنساني ويحرفون الكلم عن مواضعه. قال تعالى: قِيمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. (8)

• أبو الإنسانية العلمانية الأوروبية

نعم، إن الفيلسوف الإيطالي جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا (1463-1494) {Giovanni Pico della Mirandola} كان أول من تحدث في أوروبا عن معنى "كرامة الإنسان". ولم يخف أنه استلمهم هذا الحديث

ابو القاسم الحسين بن محمد الراغب الاصفهاني، "كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة"، دار السلام، 1428 / 2008، ص 85-86.

⁷ Jungk, Robert, *Tomorrow is Already Here* ("Tomorrow is Already Here") Rupert Hart-Davis, London, 1954.

⁸ سورة المائدة 13.

من كتابات قديمة لعربي يدعى عبد الله السراسين، وهو ربما عبد الله بن مقفع⁽⁹⁾ الذي عند ما سئل كما نقل بيكو، ما هو أروع شيء في هذا العالم أجاب أنه "ليس هناك أروع من الإنسان".⁽¹⁰⁾

وقد أُطلقَ على بيكو ديلا ميراندولا لقبُ "أبو الإنسانية". كتب بيكو كتابًا عن كرامة الإنسان في القرن الخامس عشر، عندما كانت الكلمة اللاهوتية في أوروبا مكرسة بشكل أساسي لـ "مجد الاله". وهذا في حد ذاته لم يكن محل خلاف، بل كان محل خلاف أنه باسم "مجد الاله" كانت تُداس كرامة الإنسان، وهو في حد ذاته نقيض "لمجد الاله". لم يكن لاهوت العصور الوسطى في أوروبا، الذي تدرب على مدرسية غامضة، بالضرورة إيمانًا حقيقياً بالله، لأن "اللاهوت" في نهاية المطاف، مثل أي مسعى إنساني آخر، مشروط بالحالة الداخلية للروح والعقل البشريين، والتي تكون محدودة بسياق الزمن والمكان مع العلم بأن علم اللاهوت ليس علمًا مخصصًا لجمع وتنظيم المعلومات العلمية الجديدة، كما أنه ليس الفن لرسم العالم لمجرد العجب. إن علم اللاهوت هو نشاط إنساني فريد ومختلف تمامًا عن العلوم الأخرى حيث يسعى إلى الحقيقة عن الله بدلاً من حقيقة الإنسان.

• من عرف نفسه، فقد عرف ربه

من الصعب تحديد اللحظة التاريخية الدقيقة التي فهم فيها الإنسان حقًا أن الوصول إلى الحقيقة عن الله يمكن الوصول إليه بسهولة وسرعة أكبر من خلال معرفة الإنسان بنفسه وبأخيه الإنسان. ولكن يمكن القول إن الأشخاص الموهوبين روحانيًا – أهل الصوفية أو الصوفيون في جميع الأديان، يضعون في اعتبارهم دائمًا أنه "من يعرف الحقيقة عن نفسه، كإنسان، يعرف الحقيقة عن الله" (من عرف نفسه، فقد عرف ربه). هذا لا يعني أن معرفة ذات الإنسان وكرامته بالمعنى الصوفي على حساب "المجد لله". فكرامة الإنسان يجب ألا يوضع قبل أو فوق "المجد لله". وهنا وقعت الإنسانية الحديثة في الفخ وابتعدت عن الروح الإلهية والروحانية الدينية الأصيلة، حيث رفعت "كرامة الإنسان" المتخيلة فوق "مجد الله" بحجة رفع "الكرامة الإنسان" أو بحجة "الإنسانية المزعومة".

عبد الله بن مقفع (718-775 م)، معروف بترجماته العربية للكتب المقدسة الميمنية والفارسية.⁹

¹⁰ Giovanni Pico della Mirandola, *Oration on the Dignity of Man*, Regnery Publishing, Washington, 1956, renewed 1984 by Robert Coponigi & Russel Kirk, p. 3rd

• مجد الله وكرامة الإنسان

إن السطحية الروحية والسادجية العقلانية كذلك التي يعاني منها الإنسان اليوم هي نتيجة "الاعتقاد البديل" القائم على فرضية أن "كرامة الإنسان" وليس "مجد الله" يجب أن تكون محور الفكر البشري الحر. بطبيعة الحال، عندما فقد الدين أو الفكر اللاهوتي حججه الطبيعية والعقلانية وأصبح غير مقنع للغاية من حيث عباراته الأخلاقية المجردة وذو شكوك الأخلاقية العميقة، لم يكن أمام علم اللاهوت الأوروبي خيار سوى الخضوع لنوع من "أنسنة الدين" (Humanization of Religion)، والتي بدورها كان يعني نوعاً من فقدان الروح، وتبني الإنسانية العلمانية التي بُنيت على أساس المادية المحضة أو العقلانية المحضة.

• الإنسانية العلمانية

نعم، هناك فكرة سائدة لتعريف الإنسانية (Humanism) بأنها الإنسانية العلمانية فقط حيث يخلط هذا التعريف الإنسانية بالمنهج العلمي وحيث الادعاء بأنه لا ينبغي للمرء أن يكون لديه دين أو معتقدات روحية إذا أراد أن يصبح إنسانياً. هذا هو أكبر عيب في الإنسانية العلمانية الحديثة، لأنه في رفضه للنزعات الإنسانية ذات التوجهات الدينية الروحية، تحرم الإنسانية العلمانية نفسها من الوصول إلى التاريخ الغني والثقافات التاريخية الإنسانية المسؤولة والمتنوعة. لكن، يبدو لنا أنه من الأنسب تتبع الإنسانية باعتبارها تاريخ الثقافات الإنسانية التي فيها الروحانيات السطحية والأخلاق المزيفة والاستبداد السياسي تم رفضها لصالح العقل البشري السليم والأخلاق النبيلة والجدارة الشخصية. في القيام لذلك، يمكننا تطوير فكرة متماسكة وثابتة عن ماهية الثقافة الإنسانية في الواقع حيث الإيمان الصادق والعمل الصالح للإنسان، بناءً على أمثلة تاريخية، وليس على أساس ما بعد التنوير الأوروبي فحسب.

• حاجة ماسة إلى إثراء الإنسانية العلمانية بالروحانية الدينية الأصيلة

هذا، و في اعتقادنا أن «الإنسانية» اليوم. فردًا و جماعةً و مجتمعاً. تحتاج إلى الدين أو اللمسة الروحانية الإلهية بقدر ما كان يحتاج الدين أو اللاهوت الأوروبي إلى لمسة بيكو «الإنسانية» العقلانية في القرن الخامس عشر. في الواقع، من الضروري اليوم إثراء «الإنسانية العلمانية» بالإيمان الحقيقي بالله بنفس الطريقة التي كان من الضروري بها إثراء «الدين» بـ«الإنسانية» العقلانية في وقت كان فيه «الدين» في أزمة مثلما هي «الإنسانية العلمانية» في أزمة اليوم. قال ألبير كامو: "إن هدف الكاتب هو منع الحضارة من الدمار"، ويمكن

قول الشيء نفسه اليوم، في وقت الأزمة الإنسانية الحادة الحالي. العلماء كورثة الأنبياء هدفهم منع الحضارة من الدمار ومنع الإنسانية من الانهيار.

• الأمم المتحدة وعجزها الإنساني

لقد فرضت الحروب العالمية انشاء الأمم المتحدة، التي أصبحت مسؤولة عن الإنسانية من أجل الأمن والسلام الدوليين بغض النظر عن الدين والعرق والأصل. ولسوء الحظ، فإن الأمم المتحدة غير قادرة على تنفيذ مسؤوليتها بشكل فعال على وجه التحديد لأنه، كما يقول الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش: "غزة ليست أزمة إغاثية فحسب، بل هي وقبل كل شيء أزمة إنسانية"¹¹. غزة تتحول إلى مقبرة للأطفال. ويقتل أو يجرح المئات من الفتيات والفتيان كل يوم. والحقيقة أن هذا الاتجاه المستمر من العنف والاستخفاف بالقانون الإنساني الدولي والحياة البشرية قد غلف عالم اليوم على نحو لم يسبق له مثيل .

• اختيار الانسان أن يكون انساناً

لقد سُمِّيَ الإنسانُ كائنًا عاقلًا، لكن العاقل هو مسألة اختيار - والبديل الذي تقدمه له طبيعته هو: كائن عاقل أو حيوان منتحر. يجب على الإنسان أن يكون إنسانًا - باختياره؛ عليه أن يعتبر حياته قيمة – باختياره؛ عليه أن يتعلم كيف يحافظ عليها – باختياره؛ عليه أن يكتشف القيم التي تتطلبها، ويمارس فضائله - باختياره. إن مدونة القيم المقبولة بالاختيار هي مدونة للأخلاق⁽¹²⁾.

• الأخلاق والعقلانية في الإنسان

والواقع أن القضية الحقيقية هنا هي نوع من الأخلاق في المجتمع الحديث. الأخلاق التي هي إما من روح الله، أو من "الإيمان" الأصلي، أو من الوعي الإنساني، والتي نسميها نحن المسلمون التقوى، وكذلك من قدرة الإنسان العقلانية على التعرف على الحق أو الباطل، الصواب أو الخطأ، الخير أو الشر أو الأخلاق المبنية على شعور إنساني خالص أو ذوق أو رغبة. لذا فإن فكرة المجتمع الحديث ليست جيدة ولا سيئة في حد ذاتها، ولكنها يمكن أن تكون جيدة أو سيئة وفقا للقيم الأخلاقية التي تركز على المبدأ الأساسي للتنوع

¹¹ Press Conference by Secretary-General António Guterres at United Nations Headquarters. United Nations Meetings Coverage and Press Releases, SM/SM/2202, 6.11.2023. Dostupno na:

<https://press.un.org/en/2023/sgsm22021.doc.htm>. Available 6.01.2024.

¹² Ayn Rand's novel *Atlas Shrugged* (1957).

الثقافي والاجتماعي الذي تستمد منه مبادئ أخرى مثل: مبدأ الحرية مقابل العبودية، ومبدأ الحق مقابل القوة، ومبدأ العلم مقابل الأساطير، ومبدأ الديمقراطية مقابل الاستبدادية، ومبدأ الإنسانية مقابل البربرية. ومن ثم فإن فكرة المجتمع الحديث ليست تطوراً ثقافياً واجتماعياً نهائياً. إنه مجرد نموذج لشيء يشبه شيئاً آخر بدقة. وهذا الشيء الذي قد يشبهه نموذج المجتمع الحديث بدقة هو مبدأ التنوع بكل أساسياته من حرية وحق وعلم وديمقراطية وإنسانية، المبدأ الذي يمثل الحقيقة الأساسية أو القانون أو القوة الدافعة لتعزيز قيمة الحياة الإنسانية، وكرامة الإنسان في خدمة المجد لله سبحانه وتعالى.

• الوعي الاختياري الأخلاقي للإنسان

الإنسان ليس لديه قانون تلقائي للبقاء. ليس لديه مجموعة تلقائية من الإجراءات، ولا مجموعة تلقائية من القيم. لا تخبره حواسه تلقائياً ما هو الخير أو الشر بالنسبة له، وما الذي سيفيد حياته وما الذي يعرضها للخطر، وما هي الأهداف التي يجب أن يسعى إليها وما هي الوسائل التي ستحققها، وما هي القيم التي تعتمد عليها حياته، وما هو مسار العمل الذي تتطلبه. يجب على وعيه أن يكتشف الإجابات على كل هذه الأسئلة – لكن وعيه لن يعمل تلقائياً. الإنسان، أعلى الكائنات الحية على هذه الأرض – الكائن الذي يتمتع وعيه بقدرة لا حدود لها على اكتساب المعرفة – الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي يولد دون ضمان البقاء واعياً على الإطلاق. إن ما يميز الإنسان عن سائر الكائنات الحية الأخرى هو حقيقة أن وعيه إرادي (13).

• مفارقات الحضارة المعاصرة

فلنتسأل، ما مدى قرب المجتمع الحديث من مبدأ التنوع كقوة دافعة للنهوض بقيمة الحياة الإنسانية وكرامة الإنسان على أساس العدالة الاجتماعية؟

كل شخص لديه إجابته الخاصة على هذا السؤال، ولكنني سأذكر أن حضارتنا اليوم هي الحضارة العالمية ذات المفارقات الكبيرة كالتالي:

(1) كلما ارتفعت الدرجات في التعليم، قلّت درجة الأخلاق؛

(2) كلما زادت المعرفة، قلت الحكمة؛

¹³ Ayn Rand, *The Virtue of Selfishness*, Signet, 1964, pp. 20-21.

- (3) كلما زاد عدد الخبراء، قلت الحلول؛
- (4) كلما زادت الثروة، قلت القيم الأخلاقية؛
- (5) كلما بنيت المنازل الأكبر، كلما العائلات الأصغر؛
- (6) كلما التواصل الأسرع، كلما العلاقات الإنسانية الأخوية الأقل حباً وتقديراً؛
- (7) كلما زاد عدد الكتب التي تتحدث عن التلوث، كلما قل الاهتمام بالبيئة الطبيعية؛
- (8) كلما زاد عدد المؤتمرات حول السلام، زادت الحروب حول العالم؛
- (9) كلما زاد استدعاء العقل، قل السلوك العقلاني؛
- (10) كلما زاد عدد الكنائس، قل الحضور في الكنائس؛
- (11) كلما زاد عدد الحضور في المساجد، قل السلام والأمن في بعض مدن المسلمين؛
- (12) كلما زادت الدموع على جدار الدموع في القدس، وكلما قل السلام والأمن في الأراضي المقدسة - مؤشرات واضحة على أننا يجب أن نغير أسلوب حياتنا، وعلينا أن نكتشف "قوة دافعة" جديدة للأخلاق، ودافعاً جديداً للأخلاق. بداية جديدة ستقودنا إلى أساسيات الإنسانية، إلى أصولية إنسانية أو إنسانية أساسية.

• فن الحرب أو فن السلام

كما نعلم جميعاً، كان رجلاً يُدعى صن تزو هو الذي كتب منذ أكثر من ألف عام كتاب "فن الحرب"، وهو مجرد توضيح لما كان يدور في ذهن الإنسان خلال معظم تاريخه. بالطبع، كان بإمكان الإنسان أن يختار كتابة فن السلام، لكنه لم يفعل؛ كان بإمكان الإنسان أن يدعو إلى السلام العادل بدلاً من الحرب العادلة، لكنه لم يفعل؛ وكان بإمكان الإنسان أن يختار السلام المقدس بدلاً من الحرب المقدسة، لكنه لم يفعل.

في الواقع، إن فن السلام، بدلاً من فن الحرب، والسلام العادل بدلاً من الحرب العادلة، والسلام المقدس بدلاً من الحرب المقدسة باختيارنا، هو مخطط لسفينة نوح عليه السلام لبقائنا، ولخلاصنا ولأجل استمرار ورفاهية لحضارتنا.